عن الوحشنة في العلم الاستعماري بالجزائر: قراءة في المسار ونقد الطروحات والأفكار

About savagery of colonial science in Algeria: reading in the path and criticism of positions and ideas

A propos de la sauvagerie de la science coloniale en Algérie: lecture des parcours et critique des positions et des idées

د. مختار مروفل

قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، جامعة وهران 2

تاريخ الإرسال: 2019-05-16- **تاريخ القبول:** 2019-12-20 - **تاريخ النشر:** 2020-12-08

ملخص

إن موضوع هذه الورقة هو مراجعة وإعادة قراءة لبعض الأعمال الأساسية، التي أنجزت على مدار ما يزيد عن قرن من الزمن بأرض الجزائر البكر، فالبحث عن أجود الأعمال وعلى أكثرها تاريخية وتمثيلا للعمق الجزائري، وحسن قراءتها وغربلتها ، يتطلب جهدا غير يسير ننظر من خلاله إلى ذلك التراث على أنه مثير للجدل حقا، لكنه في ذات الوقت يحمل الكثير من التوصيفات المهمة والحقائق التفصيلية المرتبطة بالمواضيع وبالأبحاث المختلفة في شتى المجالات. غاية ما هنالك هي أنه لا يجب أن نتغاضى أو نتغافل على تلك الظروف والوضعيات الاثنوغرافية المختلفة لأولئك الكتاب والباحثين، ففهم ومعرفة ذلك الإنتاج الضخم المختلف فيه والذي كان في يوم من الأيام يبدو معقولا في راهن عصر صاحبه الكاتب والمؤلف، إنما يتطلب ابتداء نقد وجهة نظر المؤلف، التي نسجها على أنقاض وجهة نظر الأهالي ونستهدف هنا بالأساس تلك الكوكبة من الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين التي اشتغلت على أرض الجزائر وساكنتها ومعاودة النظر في مقاربتها الاثنوغرافية.

الكلمات الدالة: الإثنولوجيا؛ الأنثروبولوجيا؛ الوحشنة؛ الأهلي؛ الكولونيالية.

Résumé

L'héritage colonial en matière de littérature ethnologique et anthropologique en Algérie est une véritable mine d'informations, qui est restée jusque à l'heure actuelle peu exploité par la communauté universitaire. C'est à cette égard là, que nous tentions de revisiter cette manne de connaissance si spéculatives, qui a suscité pour longtemps un désaccord idéologique voire nationaliste entre les deux rives l'Algérie et la France. Ainsi dire, il est vraisemblablement de dire que les écris coloniaux, notamment en ethnologie et

anthropologie, ont beaucoup été orientés vers des fins dominatrices prédatrices qui ont servi en premier lieu la cause coloniale, et légitimé son action brutale. Dans cet œuvre ils ont été, à vrai dire, dans leur rôle. Mais est-ce que pour cela que nous devions jeter le bébé avec l'eau de bain ? Il me semble qu'il y'a une possibilité de voir cet héritage différemment et autrement. En effet, il est temps, de porter un nouveau regard critique et objectif à l'œuvre coloniale et reconnaitre aussi à leurs auteurs, une certaine rigueur dans les approches et méthodes d'investigation et de recherche. Nous estimons dans ce papier, d'exprimer un point de vue critique et remettant en cause les thèses d'un certain nombre d'écrivains coloniaux, qui ont choisi l'Algérie et sa population « indigène », en tant que terrain de recherche privilégié inédit.

Mots-clés: ethnologie; anthropologie; ensauvagement; indigène; colonialisme.

Abstract

The subject of this paper is a review, re-reading and evaluation of some of the core works, which has been carried out for more than a century in the land of virgin Algeria. The search for the best works and the most historical and representative of the depth of Algeria, and good reading and screening after that requires an effort, is not easy to look at that heritage as being really controversial, yet at the same time, it carries a lot of important descriptions and detailed facts related to different topics and research in various fields. The most important thing is that we should not overlook or ignore the different circumstances and ethnographic situations of these writers and researchers, Understanding and knowing this huge production is different and it was one day seems reasonable in betting the era of author and writer, but it requires a critique of the point of view of the author, which weave on the ruins of the view of indigenous. Here we are mainly targeting the constellation of ethnologists and anthropologists who have worked on the land of Algeria and its inhabitants and reconsider its ethnographic approach..

Keywords: indigenous; ethnology; anthropology; colonialism; savageness.

مقدمة

يعتبر المؤتمر العالمي الرابع والعشرين لعلم الاجتماع، المنعقد في العاصمة الجزائرية سنة 1974 محطة رئيسة يؤرخ فيها للأنثروبولوجيا بالجزائر المستقلة، فبمبادرة من

الوزير الأسبق للتعليم العالي السيد محمد صديق بن يحيى، تم الإعلان الرسمي عن وفاة الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا في الجزائر وخروجهما نهائيا من الخدمة، فهذان التخصصان (بحسب ما شاع في ذلك الوقت) سليلي الفترة الاستعمارية، قد تورطا جنب الى جنب، لأزيد قرن من الزمن في جلب الخراب والدمار على الجزائر. فالزمن في تلك الفترة كان زمن الحماس الوطني، فلا يجب التشويش على هذه الروح بما تحمله الأنثروبولوجية من كوابيس المستعمر القديم، المندحر حديثا من البلاد فإذا كان ولا بد من قبول للعلوم الاجتماعية على الساحة الوطنية، فليكن ذلك من باب خدمة المشروع الوطني التنموي الذي يعزز حضور الدولة.

أما البحث في الوقائع الاجتماعية وما تشتمل عليه من اختلافات متعددة وعميقة، فهو عمل مردود وغير مقبول لأنه يعاكس طموحات أيديولوجيا الوحدة الوطنية، التي لا تحبذ كثيرا نهج التعددية الفكرية، ولا التصورات المخالفة في المشاريع وفي بناء الوعي السياسي، بتعبير آخر إن الدولة الجزائرية بُعيد الاستقلال، لم تكن لتقبل من علم الاجتماع إلا أن يكون مروَضا وعلى أتم الاستعداد ليلعب دورا إيجابيا تجاه قضايا تخدم الدولة الأمة، وهو بالمناسبة (ويا للمفارقة) نفس الدور الذي طلبته فرنسا الكولونيالية من الإثنولوجيا، أن تلعبه تجاه مشاريعها الاستعمارية، فكلا الفريقين بالتالي من كلتا الضفتين، (سواء بوعي منهما أو من غير وعي) قد راهنا على التمحور الاثني في التعاطي والتعامل مع علوم الإنسان والمجتمع في خدمة مشروعه السياسي.

إن مطب "الكولونيالية المنهجية" في واقع الأمر هو كمطب "الوطنية المنهجية" (BECK, 2006) كليهما يقودان في الغالب إلى النتائج الخاطئة، فالمغالاة في الأحكام وفي الصور النمطية الممنهجة التي رتبها العلم الكولونيالي على الأهالي، لا يختلف في شيء عن فكرة "الباحث الأهلي"، المتحمس لمسألة تحرير المعرفة الأنثروبولوجية من خلفيتها الكولونيالية[1](Saheli, 1962)، فمعاداة الاستعمار وركوب النزعة الوطنية لا يكفيان

[1]- بالنسبة إلى محمد شريف ساهلي فإنه لا يمكن الاقتناع،بأن البحث الكولونيالي بما فيه من إيجابيات، أن يكون ذا فائدة تذكر لصالح دراسة الإنسان الجزائري، فالأعمال الكولونيالية لا يأتي منها إلا الضرر بالمطلق، وعليه فإن المؤهل الوحيد القادر على سبر أغوار الذات الجزائرية ومعرفة أسرارها ومكامنها هو الباحث

لوحدهما لإنتاج معرفة حقيقية، فهذا لا يساعد البتة على ظهور فكر كوني، الذي يعد المتنفس الحقيقي للحياة الجامعية وسر نشأتها. إنه ضمن هذا السياق المحتدم الذي ندرك فيه السياقات، ونعي فيه المسافات الواجب الوقوف عندها وما يتطلبه ذلك من تجاوز ضروري للعقدة الكولونيالية المستظلة بظلال الأيديولوجيا الوطنية ،وما يناظر الأخيرة في المقابل من "نظرة سقيمة"[2](Vatin, 1976)، اتسمت بها الكتابة الاثنوغرافية في نسختها الاستعمارية وتأسست عليها عملية الاحتلال برمتها[3] (شولين، 2005). فضمن هذا الإطار إننا سنعمل على مراجعة وإعادة قراءة وتقييم بعض الأعمال الأساسية، التي أنجزت على مدار ما يزيد عن قرن من الزمن بأرض الجزائر البكر، فالبحث عن أجود الأعمال وعلى أكثرها تاريخية وتمثيلا للعمق الجزائري، وحسن قراءتها وغربلتها بعد ذلك، يتطلب جهدا غير يسير ننظر من خلاله إلى ذلك التراث على أنه مثير للجدل حقا لكنه في ذات الوقت يحمل الكثير من التوصيفات المهمة، والحقائق التفصيلية المرتبطة بالمواضيع وبالأبحاث المختلفة في شتى المجالات. غاية ما هنالك على أنه لا يجب أن نتغاضى أو نتغافل على تلك الظروف والوضعيات الاثنوغرافية المختلفة لأولئك الكتاب والباحثين، ففهم ومعرفة ذلك الإنتاج الضخم المختلف فيه والذي كان في يوم من الأيام، يبدو معقولا في راهن عصر صاحبه الكاتب والمؤلف (مثلما نقل حسن رشيق عن George W. Stocking)، إنما يتطلب ابتداء نقد وجهة نظر المؤلف التي نسجها على أنقاض وجهة نظر الأهالي ونستهدف هنا بالأساس تلك الكوكبة من الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين، التي اشتغلت على أرض الجزائر وساكنتها ومعاودة النظر في مقاربتها الاثنوغرافية.

الجزائري ذاته المتشبع بالروح الوطنية وليس الأجنبي، من هنا وجب ضرورة تحرير التاريخ وتصفيته من علوم الاستعمار بأيادي جزائرية خالصة، وذلك وفق تقدير الكاتب.

[2]نشير هنا بالنص إلى ما قاله فاتان عن تلك النظرة حيث عبر قائلا: "هي نظرة ناقصة لا يرجى علاجها استحكمت وتوطنت في طبيعة العلوم الاجتماعية وملاحظاتها القبلية، هي مرض طال العالم ومعاناة يعاني منها الباحث الذي يبحث، إنها النظرة العليلة التي تعبر عن صعوبة في التحكم في الملاحظة أولا، وفي تشخيصها ثانيا ثم فهمها ثالثا.

[3]هذه الفكرة قد سبق لديكارت وأن طرحها في قوله،"أن سياسية المعرفة سبقتها قبل 150 عاما فكرة أنا أغزو إذن أنا موجود،.... هو تموقع سلطوي يداخله يراركية إثنوعرقية".(كلودين شولين).

فالظاهرة الكولونيالية على الرغم من مأساويتها، وما خلفته من تشويه طال مختلف المستويات، إلا أنها كانت بمثابة "الخطأ الخصب" المفيد على حد قول Merton R.ربرت مرتن (Merton, 1956) الذي تمخضت عنه دراسات وأبحاث علمية، أدت في النهاية إلى اكتشاف الجزائر وقياسها جغرافيا وبشريا، ومهدت في ذات الوقت الطريق أمام الإدارة الاستعمارية لتحضر مخططاتها من أجل غزو الجزائر واحتلالها بعد ذلك. لقد تعزز ذلك المسعى العلمي لمدة قرن كامل، فظهرت فيه المسوح الميدانية والمؤلفات المونوغرافية والدراسات الإثنوغرافية، فغزو القلم الذي سبق غزو السلاح، هو من أوحى ذات مرة للحاكم ديلافينيات (Dilavignette) أن يصف أولئك الإداريين، المشبعين بالكتابات الاثنولوجية "بالحكام الحقيقيين للإمبراطورية" الفرنسية، لذات السبب فنحن مطالبون اليوم بالبحث والتنقيب وإعادة استكشاف كتاباتهم وطرائق بحثهم وتحقيقاتهم الميدانية، فمن باب الإنصاف والنزاهة أن لا نرمي الجمل بما حمل! مثلما يقول المثل العربي.

ولعل هذا ما يدفعنا بالفعل أن نضع الكتابات والمؤلفات الكولونيالية ضمن إطارها الاجتماعي، فالفصل بين الأطر الاجتماعية "المأدلجة" والموجهة للمعرفة والتمييز بينها وبين المعرفة المتسمة بالرصانة وبالأصالة، هو أمر ضروري بالنسبة إلى عملية النقد والتمحيص المرجو تطبيقها على ذلك التراث الملغم، والذي نفتتح باب التساؤل فيه بالقول، لمن تعود الأولوية في الأخذ بزمام السلطة داخل النظام الكولونيالي، أللعسكريين أم إلى المدنيين؟

1. الجزائر وأطروحة التوحش

1.1ثنائية العسكري والمدني في النظام الكولونيالي

لنبدأ أولا بموضوع العسكري والمدني وأيهما أولى بالسلطة داخل النظام الكولونيالي، فهذا الأمر يعد ضروريا بالنسبة إلى الإدارة الاستعمارية، فهي معنية بترتيب أوراقها الداخلية وتنظيم صفوفها، وذلك قبل أن تقع في أي خطأ قاتل يودي بمشروعها الاستعماري التاريخي في مهب الرياح، لذلك فهي قد اعتمدت في البداية على العسكريين في تقدير حجم العدو ومعرفة خصائصه، وعناصر قوته المادية والمعنوية بشكل علمي

وموضوعي، ثم مواصلة بعد ذلك اكتشافه بشكل آمن وسلمي ومستقر[4] (Lucas et Vatain, 1975)، ما يعني من الناحية العملية إنهاء دور العسكر في الأقاليم المسيطر عليها، وتولية بدلهم المدنيين شؤون إدارتها، فالعسكر وبالرغم من مكانتهم وتقدير النظام الكولونيالي لهم، لم يعد يلجأ إليهم إلا في حفظ النظام وضبط الوضع العام، فهذا قرار سامي يجب الالتزام به وذلك من أجل استدامة عمر الاستعمار كما يرى صاحب السلطة ويأمل على الأراضي المحتلة، لكن هذا التوجه لم يكن ليرضي أولئك المسؤولين العسكريين ورؤساء مكاتب العرب أصحاب الشهادات والقيادات العليا، الذين تقلصت أدوارهم وصلاحياتهم خصوصا في كتابة المشاريع السياسية وإنجاز الأعمال والتقارير الأنثروبولوجية، فهم لم يكونوا واثقين من قدرة أولئك للإداريين المدنيين من المعمرين الكولون في تسيير شؤون الأهالي، إذ كانوا يصفونهم بالجهل وبقلة الخبرة بهذا الخصوص.

ففي الوقت الذي كان فيه العسكريون يباشرون بأيديهم التحقيق والعمل الميدانيين، كان أولئك الموظفون المدنيون ينتظرون أن يصلهم آخر ما استجمعه العسكر من حصاد ومن مواد، ليجعلوا منه بعد ذلك فولكلورا يتناغم وينسجم مع متخيلهم الإثنو-مركزي، الذي يخدم المستعمِر وليس المستَعمر فالأولون واجهوا الميدان بوصفه أرض تميز أهلها بالمناعة وبرفض المحتل، فليس لهم من حيلة بالتالي سوى التعرف الحقيقي وليس المتخيل، عن موارد القوى التي تعطي للخصم شراسة واستبسال في مواجهة العدو ودفعه عن أرضه، من هنا فقد أدرك الكتاب العسكريون أهمية استكشاف تلك الحصون بشكل أمبريقي جاد[5](De Neveu, 1845)، بينما الآخرون المدنيون الذين

[4]-في دراسة له للأعراق يقول جالياني (Gallieni)أن المجموعة التي تملأ المكان، هي من ستحدد لنا التنظيم السياسي ومن يجب دعمها بالوسائل المساعدة من أجل تحقيق استقرارها، فالضابط الذي نجح في وضع خارطة إثنوغرافية مطابقة للإقليم الذي يحكمه هو أقرب ما يكون الى ضبطه سلميا وتسيره بالطريقة التي تتناسب والمنطقة التي تخضع له.

[5]- فكتب الرقيب de Neveu كتابه Les Khouans, Ordre religieux Chez les musulmans, Paris, Guyot,1845 الذي يصف فيه "النظم الدينية" المسؤولة عن نشأة الروابط الاجتماعية لدى المسلمين وذلك بغرض إضعافها وإخضاعها.

جاءوا فيما بعد وتولوا المناصب التي كانت بيد العسكر لم يخوضوا كل هذا المخاض العسير، ربما هذا ما استشعره على الأقل القادة العسكريون وهم ينظرون إلى مهامهم وأعمالهم الجليلة التي أنجزوها وهي تذهب إلى غيرهم من المدنيين.

إن الإثنوغرافية العسكرية التي استكملت جميع فصولها خلال ستة عقود من الاحتلال، وجابت بذلك جميع الأراضي الجزائرية من جهاتها الأربعة، قد أخلت المكان للإثنوغرافية الكولونيالية التي يمثلها المعمرون، الذين كانت أعينهم حريصة كل الحرص على الأراضي والممتلكات الشاسعة وليس على حياة الناس. لهذا السبب فقد عمدوا إلى تركيب صور نمطية ألبسوها جسد الجزائري الأهلي فوصفوه بالتوحش وبالتخلف[6] وعمموا بعد ذلك الصورة، حتى لا تنشأ أية فرصة للأنثروبولوجية الخالصة للجزائر، فتلاشت الأخيرة بالتالي وضاع نصيبها بين الأحكام الأيديولوجية المسبقة وبين الضروريات السياسية (Lucas et Vatain, 1975). لقد ترتب عن هذا الوضع الذي ساد خلال القرن التاسع عشر ظهور مفاهيم ومقاربات تعنى بالشأن الجزائري، لكن بشكل مشوه ومبالغ فيه، فالفترة هي فترة "إقصاء واستئصال" بامتياز، لا ينبغي فيها للجزائر التي تمثل نموذجا أصيلا في البحث الأنثروبولوجي أن تظهر في أعين "الفكر العلمي" الامبريالي، المطبق في دول مستعمرة أخرى كإفريقيا وآسيا، أن تكون على الصورة التي أرادها السان سيمونيون (Saint Simonien) وبعض ضباط مكاتب العرب وبعض الشخصيات، الذين روجوا للعمل الاستكشافي المنصف والمعتدل وشمل الجماعات القروية والعالم الحضري على حد سواء[7].

نذكر للتنبيه هنا بإن ثنائية "العسكري- المدني" في المرجعية الاستعمارية، لم تكن متخاصمة حول المشروع الكولونيالي ولا في رؤيتها للأهالي المستَعمر، وإلا كان ذلك سببا في انقسامات خطيرة بينهم وضعف كبير مما يمنح الأهالي فرصة التسلل عبر تلك

[6]- ارتبط هذا التوصيف بمفهوم أيديولوجية التخلف،التي كرست منطق كولونياليا امبرياليا ينظم العلاقة بين القوي والضعيف ويُوجد المبررات والحجج للسيطرة والهيمنة، على بشر يصفهم بالسلبين والجامدين ثم المتخلفين أو من هم على طريق النمو، مقابل بشر آخرين لهم كل الامتياز.

[7]- من بين الأقلام القوية التي ساندت بأفكارها مطالب الأهالي الجزائريين، وأنشأت فيما بعد ما بات يعرف بأنصار الأهالي داخل المجتمع الفرنسي والمستعمرات الأخرى نجد اسماعيل أوربان.

الشروخ، فيحول هزيمتهم إلى انتصار والاحتلال إلى اندحار، غاية ما هنالك - في تقديرنا -أن العملية لم تكن لتخرج في مجملها عن لعبة تدوير الكراسي وتبادل الأدوار وذلك بغرض تنويع أساليب الإخضاع وتعميق الاحتلال بما يتناسب ومتطلبات المرحلة، فالخصم عنيد لذلك فهو يحتاج إلى إستراتيجية في المعرفة حتى يتم تطويقه وإخضاعه بعد ذلك. ولعل طريقة "إذا ما أردت قتل كلبك فارمه بالكَلَب" كما يقول المثل الفرنسي، هي تلخص لنا بشكل أفضل منهجية المستعمر المتبعة في إخضاع خصومه من الأهالي.

2.1 أطروحة التوحش

"إن جزائر الأنثروبولوجين هي جزائر المغالطات والأفكار التاريخية المدانة، لكنها لا تزال حية إذ لا يزال العقل الكولونيالي يلقي بظلاله على المعرفة الجزائرية، ويريد إخضاعها لمصالحه الشخصية. هناك أسباب لذلك: الوضعية الكولونيالية واحدة منها(..) لكن تلك المغالطات قد قوبلت بالرفض المطلق فوحشنة الجزائر (تهميجها أو رميها بالهمجية) قد وُجهت بصراع مرير، من أجل التحرر من تلك الصفة.(..). إن دراستنا تهدف إلى تقديم فكر نقدي خاص بأبحاث الفرنسيين، متسائلين عن منجزاتهم في الفترات السابقة والراهنة. من المؤكد أن مسار التحرر من الوحشنة، لن ينهي الصراع هنا. فضرورة تعرية الأحكام الأيديولوجية المسبقة المتعلقة بوحشنة الجزائر، لا تكفي في واقع الأمر لتحرير مجمل المعرفة"(Lucas et Vatain, 1975,p.7)، بهذه النظرة استهل الباحثان جورج لوكاس وجون كلود فاتان كتابهما جزائر الأنثروبولوجيين، والتي لم تكن في الواقع سوى جزائر العسكريين والإداريين والجامعيين وكذا الروائيين الذين أوكلت لهم مهمة هندسة المخيال المنسوب والمحسوب على الجزائر وذلك ما بين فترة سنة 1830 وسنة 1974. فحول هذا الموروث وعوامل النشأة التاريخية والشروط المعرفية التي تأسس عليها ذلك المخيال، جاءت مبادرة الباحثين النقدية لتضع العلم الكولونيالي بصحيحه وسقيمه على محك البحث ومشرحة التفكيك.

لننبه هنا أن أطروحة الوحشنة الاستعمارية، التي تذرع بها المحتل ليحقق من ورائها "فتوحاته الحضارية" المزعومة، لم تكن من أولوية العسكريين الذين أدركوا منذ البداية أن تحكمهم في العدو والسيطرة عليه لا بد وأن يمر على إدراك لنقاط القوة والضعف وعلى معرفة المقدرات المادية والبشرية والتبصر بالعناصر المشكلة للوحدة واللحمة، والتشخيص الدقيق للمجموعات وأسباب تحالفها أو تخالفها، فضباط

الجيش الذين اضطلعوا بتلك المهام قبل غيرهم، لم يكن يهمهم سوى التحضير الجيد للمعارك التي سبق لهم وأن جربوا عبرها وعن كثب، بسالة العدو وتضحياته الجسام التي أبداها أثناء الذود عن أرضه وعرضه. إنه من غير تحقق هذا الشرط فإنه يصعب الائتمان من الأخطار ومن الخسائر التي قد يسببها العدو لهم، لذلك لم يكن العسكريون معنيين كثيرا بالأحكام المسبقة التي أطلقها غيرهم، فهم لم ينفتحوا عليها إلا بعدما حققوا المهمة التي أوكلت إليهم، أي بعدما تمت لهم السيطرة الكاملة على المسلمين الأهالي وكسروا شوكتهم العسكرية، حينئذ ركنوا إلى التوصيف والتصوير الفلكلوريين للعدو والذي هو في الواقع، عبارة عن مزيج اختلطت فيه الحرب النفسية بنشوة التفوق والانتصار بالتصورات الغرائبية والبدائية، التي داعبت طويلا مخيلة العقل المركزي الغربي وهذا كلما اتجه شرقا أو غربا ليمارس رياضته المفضلة المتمثلة في الاحتلال.

ولعله ولهذا السبب الاثنو- مركزي، قد شدد المستعمر على ضرورة أن يكون البحث والتحري في الشأن المجتمعي الجزائري وتفسيره هو "من مهام الأوروبيين الأصلاء في البلد."(Lucas et Vatain, 1975,p.40) دون غيرهم، فهم وحدهم من لهم الحق في "احتكار الكلمة والتحليل"(Marchal, 1900, pp.363-365)، وبذلك تكون الاثنوغرافية الكولونيالية خصوصا بعد نهاية عهد الإمبراطورية الثانية، قد انتقلت من "الاثنوغرافيا الاستراتيجية" التي كان جل اهتمامها منصبا على الاكتشاف العلمي للمجتمع الأهلي، إلى "الاثنوغرافيا التكتيكية" التي لم يكن يشغلها سوى التصوير المشين والمشوه للمجتمع الجزائري المحتل. إن كلا التوجهين في الواقع إنما كانا يعبران عن الأجندة السياسية الاستعمارية في الجزائر، لا غرو في ذلك فالكتابات الرئيسة في هذا المجال قد كشفت عن ذلك التباين وعبرت عنه في وقته، فأعمال كل من دوماس وبيليسيي دي رينو Pellissier de Reynaud)(Daumas et على سبيل المثال، القائمة على العمل الميداني والذي يضم جمع المعلومات وتسجيل الشهادات الشفوية، هي وثائق قوية تأتي في إطار تعزيز ودعم متطلبات الإثنوغرافيا الإستراتيجية، في حين أن أعمال الرائد ريشار commandant)(Richard والذي يمكن القول أنها تشهد على انحسار وأفول نجم الاثنوغرافيا الكولونيالية، فهي تعبر عن الاثنوغرافيا التكتيكية التي عمد فيها الكاتب، الى "نشر الطابع الهزلي البطولي المحتفي بالسخرية العنصرية والاحتقار، فتحولت معه

الأخلاق إلى مناسبة للنكتة المسرحية، حاملة بذلك في طياتها رسائل تربوية مؤدات في طابع فكاهي"(Lucas et Vatain, 1975, p.45).

إن الكتابة الساخرة في هذا المجال، قد تعمدت تزييف الوعي وإزالة الخوف من قلوب المستوطنين وإرسال رسالة تهكمية واسعة الانتشار، ينتهج فيها أسلوب "التعليم بطريقة التسلية والسخرية" فعموم الشعب مثلما يصرح الرائد ريشار، هو غير مستعد لقراءة الكتب الكبيرة التي يكتبها العلماء لذلك فمن المهم اعتماد هذه الطريقة وذلك من أجل التأثير في وعي الناس وفي سلوكياتهم. إن تاريخ سياسة الاستعمار تجاه الجزائر، لهو حافل بتلك السرديات الساخرة والقصص المضحكة التي أمعنت في إطار من الحوار، على إبراز شخصية الإنسان الجزائري العربي في صورة الساذج البليد المتوحش وأخذت أبعادا ثلاثة.

3.1. الوحشنة في أبعادها الثلاثة

إن تثبيت الخصم والسيطرة عليه أولا، ثم رسم صورة سريالية حوله ثانيا، تصوره على أنه ذلك الشخص العربي البليد والمتوحش، إنما جاء بناء على قرار سياسي واع ومدروس أطلق العنان للتنكيت والفكاهة واصطناع قصص هزلية وغريبة، لتحط من شأن الخصم فتشجع في النهاية على قتله أو استغلاله، في خضم هذا المشروع الممنهج، الذي ازداد كثافة وانتشارا خصوصا ما بين سنة 1870 وسنة 1890 ليشمل مختلف النخب العسكرية منها وغير العسكرية- حينذاك - ظهرت ثلاثة مجالات رئيسية عملت على تشييد واستكمال تلك الصورة المصطنعة والمزيفة، والذي يمكننا أن نشير إليها هنا على النحو الآتي: مجال الإسلامولوجيا، مجال الرواية وكتابة القصة ثم مجال المعرفة الجامعية.

2. مجالات الوحشنة

1.2. مجال الاسلامولوجية

إن هذا المجال الحساس، الإسلام، الذي طالما نظر إليه المستعمر على أنه المحرك الأساسي لجميع المقاومات والانتفاضات، التي قضّت مضجعه وأفسدت عليه حلمه في الخلود على أرض الجزائر قد حفز العديد من الباحثين العسكريين، ليخوضوا فيه

ويؤلفوا حوله الكتب والأبحاث، تلك المؤلفات التي توالت في هذا الباب، فأشبعته بحثا وتحليلا وذلك بغرض إضعافه وإخضاعه لحكم المستعمر، نتحدث هنا على عدد من الكتاب العسكريين الإداريين، من أمثال النقيب دو نوفوا (De Neveu) الذي كتب سنة 1845 كتابا أسماه بالإخوان، وصف فيه "النظم الدينية" المسؤولة عن نشأة الروابط الاجتماعية لدى المسلمين، وكتاب ل. رين (L.Rinn)سنة 1884 حول الإسلام في الجزائر والمنتقي للوقائع والأحداث، التي أخذها من المجتمع الأصلي وراح يعممها على "الإسلام الجزائري" وعلى الحضارة الإسلامية ككل، كل ذلك في إطار من الإيحاءات المضمرة التي تحمل الكثير من الاحتقار ومن الازدراء للدين الإسلامي، خصوصا في بعده الصوفي والطرقي والذي أتم كل من دوبوا(Depont) وكوبولاني (Coppolani)فصول البحث فيه، ورده (أي الإسلام الصوفي والطرقي) هانوتوا ولوتورنوا (Letourneau-Hanoteau)إلى الأصول البربرية والأعراف والتقاليد القبائلية السابقة عن الإسلام، وذلك بعدما تلقى الضوء الأخضر في ذلك من الحاكم اللواء جول كامبوا (Jules Cambon).

إن تلك المثالب والمآخذ وما تمثله من عقبات ومن عوائق، أمام النظرة الموضوعية الصحيحة والمعرفة النقدية الصريحة، لا ينبغي في واقع الأمر أن ثنينا أو تلجمنا عن الاعتراف بأن لتلك الأعمال مزاياها وايجابياتها أيضا، فهي قد ساهمت بالفعل ولمدة قرن كامل من الزمن على فهم بعض من جوانب مؤسسة الزاوية، كما ساهمت في الكشف على الوظائف القانونية الدينية ذات الصلة بالبنى الاجتماعية والتكوينات العائلية ومكانة المرأة. فكتاب **رين** على الرغم من نزعته الاستعمارية المتطرفة الواضحة، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يمنعنا من أن ننظر بشيء من الاعتراف، إلى عمله المنهجي المستند على البحث الميداني وعلى المقارنة الأمبريقية، التي شملت عددا من الجمعيات الدينية التي أسسها الكاتب عندما كان مسؤولا عن الخدمات المركزية لشؤون العرب، وبعد ذلك صار مستشارا للحكومة ومعلقا شبه رسمي على المقاومة سنة 1871، كل ذلك الرصيد بما له وما عليه لا يجب إغفاله ودون الاستفادة منه، لكن ليس قبل تنقيته من النوايا المغرضة ذات الأبعاد الإيديولوجية والاثنو- مركزية، التي تحول دون التوصل إلى المعرفة الكونية المساهمة في فهم ما هو محلي بكل ما يحمله من تشعبات مختلقة ومتعددة.

في ذات السياق يأتي الحديث أيضا على "الإسلام الشعبي"، وكل ما يتصل به من ممارسات سحرية مشعوذة وما يتبع ذلك من تقديس للأولياء والتمسح بالأضرحة والقباب، فهذا الميدان هو كذلك ميدان ملغم يسري عليه ما يسري على المواضيع التي أشرنا إليها آنفا، وبالتالي فلا ينبغي أن يكون ذلك مبررا أو ذريعة لرفض أعمال كل من دوتيه (E.Doutté) ودرمنجم (E.Dermenghem). إذ لا يتصور البحث في مثل هذه المواضيع، دونما المرور على كتاب Magie et Religion الشهير، الذي ألّفه إ. دوتيه سنة1909 وجعل منه رائدا فريدا في مجال الاسلامولوجيا المغاربية بشكل عام. هذا دون إغفال بطبيعة الحال ما سجله ج. بيرك من نقد على هذا الكتاب، فهو قد نبه إلى الصورة المشينة التي صور من خلالها دوتيه المغرب وقدمه وكأنه بلد للسحر وللشعوذة فقط، لكن بالرغم من ذلك فإن ج. بيرك قد أجزل لدوتيه في الاعتراف بقله: أن ميدان السحر والدين قد وجد بكل استحقاق واصفه الحقيقي... ويقصد به هنا إ. دوتيه.

2.3 مجال الرواية وكتابة القصة

بعدما استنفذ العسكريون جهدهم في استكشاف الجزائر جغرافيا وديمغرافيا وثقافيا، وحققوا غرضهم الاستعماري في ذلك، لم يمانعوا بعد ذلك من فسح المجال للموظفين المدنيين والجامعيين والموسوعيين والفضوليين والهواة وغيرهم، للاستفادة مما أنجزوه هم من أعمال ميدانية، إذ ليس لديهم ما يخشونه بعد ذلك على مشاريعهم، إنه في مثل هذا المناخ الرخو انتعشت كتابة الرواية والقصة، وهنا بطبيعة الحال ستكون المراهنة على الخيال وعلى الترف اللغوي والبلاغي، بدلا من التعويل على العمل الاستقصائي الذي يحتاج إلى التثبت من الروايات والتمحيص فيها ونقدها، فلم يكن من أولويات أولئك الكتاب هذا العمل مثلما كان الحال عليه عند الجيش، فهم لا يحققون ولا يمحصون في المرويات ولا هم مطالبون بتكوين ملفات ولا كتابة تقارير في الموضوع، لذلك سمحوا لأنفسهم باختلاق الحكايات ونسج القصص من وحي خيالهم، إذ يكفي أن يزور أحدهم الجزائر ويقضي فيها بضعة أشهر أو أسابيع أو حتى أيام ولما يعود إلى بيته، يؤلف كتبا وروايات عن تلك الرحلة، توحي وكأنه قد اختبر الشأن الجزائري (على تنوعه وثرائه) بعمق ومكث فيه دهرا طويلا !، بينما هو لم يسجل سوى ومضات عابرة وسريعة علقت بذاكرته أو مذكرته وراح يعممها على الكل الجزائري، تحركه في ذلك

رغبة جامحة في البحث عن الغرائب والإثارة أو شوقا إلى إنجاز عمل ما، يضاهي به تلك الأعمال التي أنجزها أولئك الضباط العسكريون والتي وصفت بالتاريخية!

من ذلك ما كتبه أحد الرسامين التشكليين، والذي بعد جولات عديدة قادته إلى مناطق مختلفة من ربوع الجزائر وبعد ستة أشهر من السياحة، خُيل إليه أنه قد أحاط بكل شيء فراح يحكي ويقول أنه: قد وقف على جميع ممارسات العرب في حياتهم الحميمة والخارجية، ولم يغفل في ذات الوقت حتى حياة الأوربيين بالمناطق المستعمرة، مثل هذه الكتابات العديدة والمتراكمة الغارقة في التعميم وفي التعويم كثيرا ما استمالت أولئك الهواة الزائرين لأرض الجزائر المستعمرة، ليبنوا على أنقاضها أمجادا لأنفسهم. الأمر لا ينطبق تماما بطبيعة الحل على الكل، لنقل ذلك من باب النزاهة والإنصاف فالكتابات الواردة في هذا الشأن والتي لم تكن تخدم الغرض الاستعماري، ولم تأت على هوى "ملاك الإمبراطورية"، لم تكن لتحظى بالانتشار ولا بالاعتبار، ينطبق ذلك تماما على الكاتبة ايزابيل ابيرهارد (Isabelle Eberhardt) التي وُجِهت أعمالها بكثير من التشنيع ومن التسفيه، وذلك بمجرد أن حاولت الكاتبة نقل الصورة من الداخل وليس من المنظور الاثنو- أوربي. الذي يمعن في تقديم الذات الجزائرية، على أنها سطحية وساذجة لا تحتاج إلى كبير عناء في تأملها والولوج في ثناياها.

وبناء عليه فلا مانع من الاسترسال في التحدث عنها، كيفما اتفق وحسب ما جاد به الخيال وصَّوره!. لقد استفحل هذا الأمر وازدادت حدته، خصوصا في سنة 1871 التي شهدت تغولا بشعا لهذا المنطق الذي محيت فيه صورة الجزائري الحقيقية واختفت، إلا من أولئك المتحكمين الاستعماريين الذين منحوا لأنفسهم الحق الكامل في ملاحظة وتفسير الجزائري، فشوهوا صورته وعرضوه بشكل غريب وعجيب يمنح للمستعمر المزيد من الشرعية ومن المشروعية، في التعامل وفي التحكم بالمستعمَر. على الأقل هذا ما يمكننا قوله على المرحلة الأولى المتبعة في اكتشاف الجزائر، والذي يبدو أن وحشنة الجزائري وإقصائه واستئصاله الجذري، هي من أبرز الملامح التي اتسم بها المشهد الكولونيالي في فصله الأول.

3.2 الأسطورة البربرية

يأتي في ذات الإطار الحديث عن مخططات التقسيم والتفتيت التي اتبعها المستعمر وذلك من أجل الاستيلاء على المزيد من الأراضي السهلية الجيدة وإخلاء سكانها الأصليين منها، واستعاضتهم في المقابل بالوافدين الأوروبيين الجدد (الكولون). لذلك راح يعبث بنسيج المجتمع المحلي الكلي المتنوع والمتعدد في وحدته، ليجعل منه أجناس متفرقة ومتناقضة لا يجمعها جامع ولا ينظمها ناظم، فوضع الرحل مقابل المستقرين والبربر مقابل العرب والقبائل الصغرى مقابل القبائل الكبرى، والشمال مقابل الجنوب والمغرب مقابل المشرق والمسيحية مقابل الإسلام وهكذا، فنحن أمام تقسيم تبسيطي جديد الغرض منه هو إحكام السيطرة وبسط النفوذ على الكل.

ومن أجل تنفيذ هذا المشروع وإحكام المستعمر قبضته عليه، قامت المؤسسات الفكرية وعلى رأسها "مكاتب العرب" بإيلاء عناية خاصة للهجات المحلية المتنوعة، فالسياسة الاستعمارية في هذا المجال واضحة، فهي تبغي التوغل أكثر في بنية المداشر والزوايا وفي الأهالي ككل. إن سنتي 1871-1873 كانتا فارقة في هذا الموضوع، إذ بعدهما مباشرة قامت مكاتب العرب التي يرأسها بالمناسبة العسكريون الإداريون، من تكثيف أعمالها المتعلقة بسن القوانين ذات "الهوى الفرنسي" والمشرب الكولونيالي، الذي يخدم بالأساس السياسة الاستعمارية المرتبطة بتنظيم هذا الشأن. في مثل هذا المناخ الموجه ولدت الأساطير النمطية والأحكام القيمية المسبقة، التي استمر بقائها على أرض الجزائر الى غاية الاستقلال سنة 1962.

أولى طلائع تلك الأحكام تمثلت في استحداث "بدعة"، أطلق عليها المستعمر اسم "أسطورة القبائل" وهي في مجملها عبارة عن "ابتكار غير عقلاني، من قبل علماء وهميين قد اعتمدوا على إذكاء الكره والضغينة بين العنصرين العربي البربري"(Lucas et Vatin, 1975, p.45)، إذ تفرغ العقداء المتقاعدون لرعاية تلك الأسطورة والنفخ فيها فاختلقوا بذلك فكرة "اشتراك العرق البربري بالعرق الفرنسي، وعزلوا من القصة كلها العنصر العربي"(Lucas et Vatin, 1975, p.45). إن السجل الاثنوغرافي الكولونيالي حافل بمثل هذه الأطروحات، فهي تأتي في إطار مشروع الوحشنة الممنهج الذي يعمل على الرجوع بالمجتمع المحلي ككل، نحو الخلف ومن ثمة يمكن التهوين من شأنه، وليس أدل على عدم صدق المستعمر في ما ذهب إليه وروج له من أفضلية العرق البربري على ما دونه من الأعراق الجزائرية الأخرى، مما حدث ما بين سنة 1871 وسنة 1873، إذ بمجرد ما

أن عاد الأمل إلى الكولون، في الكسب المزيد من الأراضي الفلاحية حتى باعوا قضية البربر المفتعلة برمتها وتخلوا عن دعمها، فلم تعد الحاجة إلى تمجيدها بعد ذلك.

لننوه هنا أن "بدعة أسطورة البربر" قد نشأت بعد مسار طويل، ابتدأ أول ما ابتدأ "بالنزهة" و"بالرحلة داخل بلاد القبائل" وكتابة الكتب والمدونات الاستكشافية والاستطلاعية الخاصة بالمخزون الثقافي للمنطقة، والذي طالما كُرِّم من أجله الضباط العسكريون العاملون في الموضوع، ثم انتهي بالتشويه وبالتضييق على الأعراف وعلى العادات الأمازيغية المرنة المتعلقة خصوصا، بأعراف عقد القران وعقود الملكية والمبادلات القائمة على الشرف التي سلخت جميعها من مضمونها ومن بيئتها، وتم تحويلها بعد ذلك إلى قوانين مكتوبة جافة ملزمة وواجبة، عرفت باسم "قانون نابوليون البربري" الذي كان الغرض منه إلحاق الأمة البربرية بالأمة الفرنسية. إن هذا التحول غير المسبوق قد أنهى بحسب تعبير هانوتوا ولوتورنوا (Hanoteau-Letourneux)، عهدا من "الانسداد البنيوي لأقلية ذات التنظيم الخصوصي"، وفتحت عهدا جديد من فرض الرقابة على المنطقة.

إن "أسطورة البربر" في واقع الأمر ما افتعلت ودُبرت إلا بغرض إعادة التعريف ببشر الأهالي وهذا في إطار من التمييز والتفرقة العنصرية، تمنح فيه المواطنة وتوزع على أساس عرقي وتقسيمي وليس على أساس إنساني عام وشامل، فعندما يعرف إميل لارشيه (Emile Larcher)(البروفسور بمدرسة الحقوق بالعاصمة سنة 1903) مفهوم المواطنة مقارنة له بمفهوم الرعية، على أن "المواطنين هم النبلاء أو الأسياد بينما الأهالي (الرعية)، فهم من سفلة الناس أو من الأقنان"(Larcher ,1903 ,p. 4-6) فإنه يكون بذلك قد أعطى الإشارة الخضراء والدليل المنهجي الواضح، الذي سيتبناه "غلاة الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا" فيمنحان المزيد من المبررات ومن الذرائع، "إلى القوانين المصممة أصلا لخدمة التفرقة والتمييز الاثني بين أقلية أوروبية وأكثرية من الأهالي"، وأثناء انتشار هذه التفرقة ذات الغرض السياسي نمت التفرقة بين الأهالي ولا سيما بين ما يسمى عرب وبربر، وأخرجت من رحمها تلك الأسطورة المسماة "بأسطورة البربر" فهذه الأخيرة هي بمثابة "حصان طروادة"، بحيث وظفتها لتنفيذ جميع المشاريع الاستعمارية الاستيطانية سواء في القديم أو في الحديث، فوحشية المستعمر ليست بالجديدة فلا طالما تذرع في سياساته التوسعية بأنه بصدد البحث عن الوحش الذي

يجب ترويضه أو القضاء عليه، ففي هذه المرة قد وجد ضالته خلف أسطورة البربر، التي حبك بيده ونسجها لباسا له حسب مقاسه ووفق قوامه في نهاية الأمر[8].

3. مجيء الجامعيين

لقد وُطِّيء لظهور الجامعيين الحقيقيين قبيل مطلع القرن التاسع عشر إنتاجٌ غزيرٌ من العلم الاستعماري المتشعب الذي يشوه فيه النظر إلى الجزائر وأهلها، ففي هذا العلم "انعدمت الاستقلالية الذاتية عن الأيديولوجية المهيمنة وعن السلطة" (Vatain,1977)، فلقد تعمد الكتاب والمؤلفون تثبيت النزعة الاستعمارية في ذلك التراث الكولونيالي، حيث كانت تدعمها بشكل واضح وصريح السلطات الرسمية القائمة آنذاك، أما المؤلفات والكتابات المحايدة والموضوعية التي كُتبت على هامش هذا الوضع، فكانت تشكل استثناءً ندُر أصحابها في ذلك المناخ العام والسائد. إن الوعي بهذا الظرف المكرس الذي تكشفت فيه نقائض وعيوب النظام الكولونيالي، والذي طمست فيه "نزعة الجزأرة" المقيتة الرؤيا الواضحة والصحيحة للوقائع والحقائق، فقد أدى ذلك إلى ظهور جيل جديد من الجامعيين الذين يمارسون النقد الهادئ والمرن للشهود، ويساهمون بذلك في تحديد الوقائع وإبعادها عن التضخيم وعن الخيال الزائد.

لقد أحصى مولود معمري في هذا الشأن، العديد من تلك الأسماء البارزة التي حولت مسار الرؤية نحو الموضوعية والحياد المتدرجين إلى حد كبير، فذكر على رأس هذا الجيل البروفسور رونيه باسي (René Basset)الذي كان مديرا للمدرسة العليا للآداب بالجزائر العاصمة، والباحث الإثنولوجي المتميز أ. بيل (A.Bel) الذي كان مدرسا بثانوية العاصمة، و إ. دوتيه (E.Doutté) المتخصص في الإسلام الشعبي، خلال هذه المرحلة ظهر عدد من الباحثين في شتى التخصصات بحيث عمل كل واحد من جهته وفي مجاله على تطوير دراسات وأبحاث تُعنى بالشأن الجزائري المحلي، فكتب الحقوقيون ورجال

[8]-لقد أبدع Charles-Robert Ageron سنة 1840 بهذا الصدد، لما وصف العملية (والقول للوكس وفاتن) بقوله "أن التوجه الإدماجيهو عبارة عن مثالية قديمة وليست بالجديدة، عادة ما تجد وحشها المفضل بحسب المقاس"(بتصرف).

القانون كتب وأبحاث عن المدونة التشريعية والفقهية وعن التنظيمات التقليدية والعرفية المحلية، كما كتب أهل اللغة واللسانيات عن مختلف اللهجات وعن أساليب الاتصال والتخاطب لدى الأهالي.

إن إ. ماسكوراي(E. Masqueray) لوحده يعد علامة مميزة في هذا الجيل من الجامعيين، ففي إطار المدرسة الجزائرية التي عُرفت بمزاولتها للمنهج العلمي الرصين، والعمل القاعدي الأساسي والمقارنة وبين التحقيق الميداني والسفر المتواصل، استطاع ماسكوراي من خلالها تعزيز الصرامة المونوغرافيا وإبراز محاسن الاستقراء والاستقصاء، فهو قد كتب سنة 1886 كتاب تاريخيا أطلق عليه اسم La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie هذا الكتاب القيم الذي لم يتردد بيرك (Berque) في الاعتراف بفضله الكبير، في ما أنجزه من أبحاث ومن دراسات، قد أبدع فيه صاحبه من حيث الفحص والتحليل والتنوع المونوغرافي، خصوصا عندما تناول المجتمعات البربرية الثلاثة والمتمثلة في المجتمع القبائلي والأوراسي والمزابي، للإشارة فإن تجلي عبقرية ماسكوراي في هذا الكتاب، إنما تأتي من مجموع الملاحظات التي استفاد منها الرجل من كتابات دوفيري (Duveyrier)حول الحواضر الصحراوية، وكتابات دوتيه حول السحر ومونتاني (Montagne)حول القبائل البربرية، بيرك بحد ذاته قد نهل الكثير من تلك الكتابات، أثناء إنجازه لأطروحته الخاصة بالأطلس الكبير.

هذا وعلى الرغم من أهمية ماسكوراي ومكانته في علوم المغرب، فإن ذلك لم يمنع جيل الجامعيين أنفسهم من إعادة نقد تراثه وكشف نقائصه ونقاط ضعفه، فبيرك على سبيل المثال لم يكن ليقر ماسكوراي على جميع قناعاته التي أوردها في كتابه الكبير، فلطالما استهجن بيرك بقاء ماسكوراي في جُبة فوستيل (Fustel)خصوصا بعدما شبَّه وبشكل نمطي، المجتمعات المغاربية بالمجتمعات الإيطالية القديمة، فلقد ضلل ذلك كثيرا (يذكر بيرك) ما يقارب ثلاثة أجيال من الباحثين، وجعلهم يخلطون بين الحاضرة البربرية (L'ikhs)(لغة تعني العظم أو السلالة)وبين الحاضرة الرومانية (la gens)، في حين أن التحقيق التوبوغرافي الرصين، يفند ذلك التماثل ويعتبره مجرد افتراض يعوزه الدليل والإثبات الماديين في ذات السياق طالب بيرك بضرورة إعادة النظر في سؤال البنى البربرية، إذا ما كانت "أركائيكية" (كما يذهب الى ذلك ماسكوراي) بالفعل أم أن

ذلك هو مجرد تخمين مضلل تحتاج إليه الإدارة الكولونيالية، لتنفيذ سياساتها وتمرير مخططاتها الاستغلالية؟. تتطلب المسألة هنا تحليلا جديا بالفعل فالمقارنة بين المجتمعات البربرية المختلفة التي تطرح كمبدأ في التحليل وفي التمييز، للمجموعات البربرية الجزائرية وممارساتها المتعددة والمتباينة وأشكال حياتها الجماعية وتجمعاتها السكنية، ومقارنة ذلك كله بالحواضر الرومانية، من شأنه أن يكشف مدى زيف تلك التأكيدات المتعسفة التي تقول بلاتينية المدن البربرية.

إن حالة النقد التي عُممت وعُمقت في عهد الجامعيين، إنما ازدادت شيوعا وذيوعا بشكل مركزي ولافت خصوصا في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، حيث زاد الاتجاه الأكاديمي تألقا وتمددا، فهو ما لبث أن كسب إلى جانبه أرضا جديدة وباحثين إثنولوجين جامعين جدد، يمارسون المعرفة بوصفها مهنة في استثمار الميادين، لقد تغيرت الذهنية مع هذه الكوكبة الجديدة، حيث أحدثوا قطيعة إبستيمولوجية ودشنوا عهدا جديدا بالأثنولوجيا الاستعمارية، جرمين تيلون (G.Tillion)في هذا السياق تعتبر امرأة ذات سبق وريادة، فهي قد مثّلت هذا الاتجاه أحسن تمثيل خصوصا في دراستها حول المرأة الأوراسية والتي تحمل عنوان (le harem et les cousins)، فلقد أشاد الكاتب س. برومبارجي (C.Bromberger)بأهمية هذه المرأة في العمل الإثنولوجي "المحايد"، ووصف مساهمتها "بأنها قد أحاطت بمختلف بنى الزواج في العالم المتوسطي، بشكل مختلف ومتناقض حتى مع ما ذهب إليه لفي. ستراوس (C.Levi-Straus) في بحثه عن البنى الأولية." (Bromberger, 2002, p. 63).

4 . تفتق وعي جديد وميلاد مجتمع

1.4 نحو تفتق وعي جديد

لم تكن جزائر الكولون لتتقبل بأن الجزائري هو عبارة عن ذات متمردة عصية على الخنوع، لا يرضى بحال من الأحوال التنازل أو التخلي عن شخصيته المقاومة، لقد كان ذلك بمثابة أسوأ الكوابيس التي يمكن أن ينهض عليها الكولون في يوم من الأيام، لذلك فهم قد فضلوا النوم في الخدر ومداعبة الأحلام الرغبوية. "فالجزائر الكولونيالية قلب ونموذج النظام الأمبريالي الفرنسي، لا تشعر بالضربات الموجهة لها من قبل المؤرخين الجغرافيين ومن الاسلامولوجيين والاثنولوجيين، فهي لا تود أن تعترف إلا بجزائر الأمر الواقع وحسب، رافضة بذلك توجهات مدارس جزائر العاصمة التي كان لها رأي آخر في

توصيف البلاد" (Lucas et Vatin, 1975, p.58) ، لذلك فإن القناعات الرومنطيقية التي كانت تخالج المعمرين، هي أعجز من أن تنجز اكتشافا موضوعيا علميا للبلاد، أنى لها ذلك وهي تكرس التخلف وتصر على إبقاء الأهالي في الذيل وتقدمهم بطريقة فلكلورية تتناسب ورغباتها التخيلية الأهلوية.

إن الواقع المغمور الذي لا تود عين المعمر أن تبصره ولا أن تراه قد جاء التعبير عنه من قبل العديد من المناوئين، المخالفين للأيديولوجية الكولونيالية من أمثال إميل فيليكس قوتييه (Emile-Felix Gautier)سنة 1933 و أوجستين برنارد (Augustin Bernard)سنة 1934 ومونتاني روبرت(Montagne Robert) سنة 1937. فالمقال الذي كتبه أوجستين برنارد بعنوان « intellectuels algériens »، وظهر على صفحات المجلة الإفريقيا سنة 1949، هو مزعج لأطروحة البلادة والسذاجة والتخلف الوراثيين، التي طالما وصم بها الكولون الأهالي وألصقها بهم. ديسبارميه (Desparmet)العائد الجديد من الاثنولوجيا التقليدية إلى الملاحظة السياسية، قد اعترف من جهته وبكل وضوح بأن المقاومة في الجزائر لم تعرف يوما توقفا ولا انقطاعا، "فالمنهزمون (على حد قوله) لم يفقدوا الأمل في الحصول على استقلالهم"(Desparmet, 1937, p. 69). نحن إذن أمام وضع جديد في الرؤيا وفي التعبير بدأ يكشف عن بوادر ظهور إثنولوجيا خالصة بشكل غير مسبوقة، لكن دونما الإسراف في القول بذلك فديسبارميه ما يزال يرى "أن فرنسا قد حملت الحضارة إلى أهالي شمال إفريقيا، وذلك في الوقت الذي كان فيه هؤلاء يغطون في نومهم في عصورهم الوسطى المظلمة والتي يسمونها بالذهبية"(Desparmet, 1937, p. 60).

على كل فإن هذا التحول الجزئي، قد فتح ثقبا في جدار التراث الاستعماري السميك ودعا الى ضرورة تبني "اثنولوجية المراجعات" التي جسدها بالفعل كل من روروا جورهان و جو بوريه (Leroi-Gourhan et Jean Poirier) سنة 1953، في عمل مطول لهما، كان الجزء الأول فيه منصبا على نقد الاثنولوجيا الكلاسيكية. ففي تقدير أصحاب اتجاه المراجعات، فإن الاثنولوجيا الكلاسيكية قد عرفت انحرافا، لا يمت بصلة بالمعرفة الأوربية ولا الفرنسية لذلك وجب تصحيحه، لقد تعاظم أنصار هذا الطرح وزاد عددهم خصوصا بين سنة 1930 وسنة 1950، فظهرت من بينهم نخب من أبناء الأهالي، الذين يعرفون السوسيولجيا الفرنسية ويكتبون "الإثنولوجيا الداخلانية"، المعبرة عن حالة اغتراب الأهالي داخل النظام الكولونيالي، نذكر من بين

هؤلاء هنا س، أ. بوليفة وسليمان رحماني ومحمد سوهَلة ، هذا الأخير الذي كتب سنة 1937 كتابا أسماه (la société indigène de l'Afrique du nord)، حيث تحفظ فيه من الاثنولوجية الكولونيالية. سليمان رحماني من جهته وفي دراسة له حول الممارسات الشبه الطبية عند بعض المجموعات الصغرى، قدم عرضا حذرا شرح من خلاله للفرنسيين مجتمعه المحلي، لكن بكيفية تنم عن مدى استحكام التعليم الفرنسي في ذهنية الرجل وليس بطريقة المتحرر المستقل الذي نجح في ترك معسكر التفكير الاستعماري، فهو لم يغادر في طرحه سياج كاريت وماسكوراي ,Carette)(Masqueray. ذات الشيء يذكر وبشكل أكثر لبسا مع الكاتب الروائي والاثنولوجي مولود فرعون، فهو قد عبر عن هذا الغموض سواء في روايته (Pauvre Menrad instituteur Kabyle) التي كتبها سنة 1950، أو في روايته (La Terre et le Sang)التي كتبها سنة 1953.

2.4 الثقافة الناهضة وميلاد مجتمع

لقد انتعشت حركة الكتابة والتأليف في الجزائر قبيل حرب التحرير، حاملة بذلك لواء الاحتجاج على الوضع القائم ومعبرة في ذات الوقت على التحول الجديد الذي طرأ في الذهنية العامة، فكتب كل من رابح الزناتي والزناتي بولنوار حينها كتابا (Le Jeune Algérien en divertissement) سنة 1945 تحدثا فيه بشكل غير مسبوق عن أخلاق العائلة والمجتمع المسلم، متصدين فيه بذلك إلى ما كان يعرف باسم "مسألة الأهالي"، التي اكتفى فيها ديسبارمي بطلب معالجتها (فقط) بشيء من العقلانية. بعد سبع سنوات من كتاب زناتي ظهرت ثلاثية محمد ديب سنة 1954، حيث وصف فيها الكاتب الوضع العام بصفة "الكامن الذي أصبح ممكنا"، رواية الحريق لنفس المؤلف رفعت من سقف الأمل متجاوزة بذلك أطروحة رابح زناتي وزناتي بولنوار، وكذا أفكار محمد العزيز كسوس س. فاسي ففي تقدير الديب بأن الجزائري لم يعد يتجاوب إلا مع صور الموت والدمار التي صنعها المستعمر.

في مثل هذا الجو بدأ الاتجاه الوطني يكسب أرضا جديدة، ويؤسس للقطيعة مع المستعمر وعلومه ويدعو إلى إنشاء قواعد بديلة في فهم الواقع تضعها أيادي جزائرية خالصة، فظهر بذلك مبارك الميلي وتوفيق المدني ومحمد الجيلالي، الذين قدموا قراءات وطنية مغايرة لتاريخ الجزائر، كما ظهر محمد شريف ساهلي ومصطفى الأشرف، اللذان اتهما "التاريخ الكولونيالي" بممارسة التشويه والتضليل على الحقائق

التاريخية، كما ظهر أيضا عبد العزيز الخالدي ومالك ابن نبي، فقدما مشروعا تحرريا نهضويا مقتبسا من أمجاد الحضارة العربية الإسلامية. في الجانب الفرنسي ثمة أصوات لم تكن تنتمي بالضرورة إلى الدائرة الجزائرية الوطنية، لكنها دافعت وبكل جدارة عن الإنسانية، وشجبت حيف الاثنولوجية الكولونيالية واتهمتها بعدم الحياد(Bourdieu et Sayad, 1964, p.257)، فماذا يعني تعمد جل الباحثين الإداريين (مثلما يذكر بيرك)في كتاباتهم إبقاء المجتمعات المغاربية عند عتبة القبيلة ولا تغادرها؟ وماذا يعني أيضا تقديم الإنسان الجزائري التقليدي على أنه ذات متناقضة جينيا مع الحداثة؟ ولماذا الإشادة بالإسلام الصوفي دون غيره الممجد للأولياء وعبادة الأضرحة، الهائم في خوارق العادات؟

إن تلك التصورات القبلية الوهمية، ما كان لها أن تسمح للمستعمر أن يستوعب ويفهم كيف يمكن للمرأة الجزائرية وهي مناط النظام التقليدي ومركزه، أن تنخرط في حرب التحرير؟ فهي في نظره عبارة عن ذات دونية قاصرة مملوكة للرجل لا يمكن لها أن ترقى إلى هذا المستوى، لقد استنكر فانون (F. Fanon) سنة 1957 على العلم الكولونيالي حديثه المبتذل عن المرأة الجزائرية[9]، والتي وصفها وقدمها على أنها مجرد أَمة للرجل وعلى أنها ربة بيت ليس إلا، هذا الفهم السريالي المنافي للواقع ما كان ليمنع "تحرر أرض الجزائر من هيمنة الكولون، ومن مشاركة أخواتنا النساء اللواتي ناضلن جنبا إلى جنب مع الرجال في تخليص البلاد وتحريرها من تلك الأَسطَورة القديمة." Fanon,1966, p. (53-54).

لقد حطمت المرأة (كما يقول فانون) في ظرف ثماني وأربعين ساعة، جميع الشبهات التي كانت الدراسات الميدانية ولعدة عقود توهمنا على أنها حقائق أكيدة. العلم الكولونيالي بهذه المناسبة وبعدما كان يحتكر لنفسه حق التساؤل والتحقيق، أصبح هو من يخضع إلى هذه المعادلة. إن هذا يعتبر تطورا مهما، إذ رسخ فانون من خلاله أثناء العمل المنهجي بالعلوم الاجتماعية، قاعدة احترام المبحوث وذلك بوصفه ذات منتجة للتصور

[9]- على قائمة المراجع عدد من الدراسات الكولونيالية، التي قدمت المرأة على أنها ذات تابعة ودونية وشبه أمة للرجل، قدمت بأسلوب ساخر ومستخف يعرضها وكأنها شيء.

وللمعني وأنها صاحبة رؤية سياسية، بذلك فهو ينفي صفة السلب والبلادة التي يحاول الباحث الكولونيالي أن يلصقها به، ويتصرف بعد ذلك في توصيفه وتفسيره كيفما شاء.

لقد تساقطت أوراق التوت عن جسد المعرفة الكولونيالية، فلم يعد من مجال الاستماع الى مبالغات كل من ر. باسيه والفريد بيل وكور ودوتييه (Basset, Alfred Bel, Cour et Doutté)، ذات التوجه الأيديولوجي الكولونيالي التي تعتبر المرابطية وعبادة الأولياء، هي الدين الحقيقي للفلاحين الجزائريين فلقد غزا الإصلاح جميع المراكز والنجوع ولم يترك في ذلك الحضر ولا المدر، بل هبت رياحه لتصل حتى أعالي الجبال والسفوح المعاقل التقليدية العتيدة للتصوف وهيمنة الأولياء، لقد تزامن ذلك مع ما كان يحدث من تغيير سريع على المستوى العالمين العربي والإسلامي، اللذين انتشرت فيهما موجة القومية وحركة الشباب على غرار الشباب التركي والشباب التونسي والشباب الجزائري. إن رجلا مثل أندريه سيرفيه (André Servier) ما كان لتفوته ملاحظة تلك التطورات، فكتب عن الإسلام الدولي وعن الحركات الوطنية المحلية، التي نفخ فيها شيوخ الإصلاح الأوائل من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري. فالجزائر قد دخلت مرحلة التغيير الكبير، وما كان للإثنولوجيا الماضوية التي تقتات على الآثار البائدة أن تبصره أو تحبذ أن تراه.

3.4 بدء القطيعة

إن تراكم كل تلك المؤشرات مجتمعة، إنما يؤذن ببدء القطيعة والتحرر من فزّاعة الوحشنة التي اتخذها المستعمر ذريعة لاستدامة وجوده في الجزائر. لقد بدأت الرمال بالفعل تتحرك من تحت أقدام المستعمر القديم، فانكشفت بذلك عيوب اثنولوجيته الكلاسيكية، فما عادت كما كانت من ذي قبل قادرة على إعادة إنتاج صور الماضي، لذلك لجأت في محاولتها أو مرحلتها الثالثة لنقل، إلى البحث عن أرض جديدة لها في الهوامش والأطراف وفي مخلفات التراث والبقايا العتيقة، معيدة بذلك قصة الاحتفاء بالتقاليد والأعراف البائدة، التي كانت إلى وقت قريب من الاحتلال محل ازدراء وتهوين من قبل الباحثين القدامى.

لقد أصبحت الجزائر الجديدة بالفعل عصية على فهم المستعمر، الذي أصبح _ويا للمفارقة _ يدعو إلى العودة إلى الثقافة! فهو وبكل صراحة وبتعبير آخر، "لا يريد أن

يرى الجزائريين حيث لا يجب أن يراهم" لقد استفاق المستعمر هنا على كابوس حقيقي، "فكهنة المعبد" قد فشلوا في اجتثاث الجزائريين من جذورهم القديمة وإلحاقهم بالقيم والمعايير الفرنسية. إن التحولات التي طرأت على المجتمع الجزائري قد أفقدت الاثنولوجيا الكلاسيكية بوصلتها فهي لم تعد تعرف إلى أين تتجه؟ لقد أحدث هذا الوضع غليانا شديدا داخل النخب العارفة في كل من فرنسا والجزائر، فاستهجن المؤرخون كما الجغرافيون طروحات "مدارس الجزائر" الداعية وبكل أبوية، إلى دمج الأقدام السوداء ضمن نسيج من تاريخ مجتمعات الشمال الإفريقي غير البربري، الماركسيون من جهتهم وأثناء مؤتمر الجمعيات العالمة بقسنطينة سنة 1937، رفضوا بالمطلق جميع دعوات الاندماج أو المساواة التي دعا إليها كل من اليساريين الاندماجيين والعلمانيين والنقابيين، فقد قرروا إحداث قطيعة مع جميع الأفكار الكولونيالية.

فالزمن لم يعد يسمح بالتواري خلف مغرب اثنولوجي، تسبقه الأحكام المزدوجة والمعاملة التميزية بين بشر هم مواطنون أسياد وبين بشر هم أهالي ورعايا وعبيد، بين مدن وقرى كولونيالية متحضرة وأخرى فولكلورية متخلفة « bled »، "فهذه الأخيرة لم تعد حبيسة ذلك التصور النمطي، إنها اليوم تعرف حيوية ذاتية ملأها المقاومة والنضال"[10](Boyer, 1960, p.399)، قد أفضت في الأخير إلى نشوب حرب تحرير تاريخية ضارية بدأت في الفاتح من نوفمبر سنة 1954 واستمرت لأكثر من مدة سبع سنوات كاملة، انقلبت فيها المعرفة الاستعمارية رأسا على عقب، فتهافتت تجري باحثة عن الدراسات الاقتصادية والديمغرافية وعن علم الاجتماع التطبيقي، وذلك من أجل سد نقصها المستفحل من النهج "الموضوعي"، المعاكس والمنافي لكل ما سبق وأن استبطنته، لعقود

[10]-يمكن أن نشير إلى التعريف الذي قدمه كل من لوكاس وفاتان لمصطلح البلاد *bled*، ونذكره هنا على النحو التالي: "هي جزائر تقليدية نموذجها هو الفلاح والبلاد *bled*، وهي عبارة عن جثة كنتيجة طبيعية للبأس، وجزائر حديثة مرتبطة بباريس لكنها عاجزة على أن تكون على صورتها مع عدم قدرة الأخيرة على "إسعافها" و"إطعامها" واستقبال الجموع الواسعة البائسة... ما يعاب على الحاضرة الكولونيالية أنها لم تنشأ سوى بعض الدوائر التنموية التي تحد مجال نشاطه وفعله بالرغم من ذلك فإن "الجزائر تعتبر محظوظة" يقول J.-P. Charnay بكل مرارة". (بتصرف)عن لوكاس وفاتان، ص.71.

عديدة من تصورات إثنو كولونيالية مؤدلجة، حالت دون تقديم الجزائر بفهم صحيح ومنصف، ولعل ما لعبته "مشكلة الجزائر" (كما كان يطلق عليها وقتها) من دور في اللجوء إلى هذا المسار، ما يجعلنا نستوعب هذا التحول المضطر، فالنمو الديمغرافي المتسارع في الأرياف وفك البنى التقليدية، "وتطور وسائل التواصل بالأخص وسائل النقل البري وظهور المنتجات المصنعة وانتشار الأفكار والممتلكات، التي ربطت وبشكل مفاجئ البلاد « bled » بالعالم الحديث وخروج الأخيرة عن رقابة المجتمع التقليدي لكن من دون استعداد لتبني القيم الأجنبية"(Claudine, Descloitres et Reverdy,1969, p. 98)، كل ذلك قد أسهم وبشكل فعال في تبني هذا المسار. إن الخطايا المقترفة من قبل الإدارة والجهاز السياسي قد أوصلت الأوضاع إلى حالة من "الخيبة في الأمل"، إذ كان من نتائج هذا التحول أن غصت المدن بالبشر وعم الفقر والبؤس، فغدت الأرياف خالية من أهلها بلا فلاحين وتشوهت المدن والمراكز وأصبحت من غير حضريين.

4.4 .انبعاث الشخصية الجزائرية من جديد

لقد واكب مشروع التحرير العسكري للبلاد جهدا فكريا متميزا، مسَّ مستويات عدة شملت البعد التاريخي والسياسي والنقابي والتربوي، ففيما يتعلق بالجانب الأول فقد عمل كل من أندريه نوشي(André Nouschi) ومحمد ساهلي وفانون والأشرف على رد الاعتبار للفاعل التاريخي في الثورة، فالإنسان الجزائري الذي طمرته المعرفة الكولونيالية وأبطلت وجوده من التاريخ، أصبح يتصدر الكتابات التاريخية الجديدة المطهَّرة من الأساطير المغيبة لوجوده، فلكم فند كل من الجغرافي أندريه برينوا (André Prenant) وبيار ايستورج (Pierre Estorges) وجيلالي ساري (Djilali Sari)، أكذوبة الجزائري الريفي الذي لا يتناسب ولا يتسق ذاتيا مع حياة المدن والأفضية الحضرية النخب المتأتية من الطبقات الوسطى المتخرجة من المدارس الفرنسية، قد ناضلت _ هي الأخرى _ على المستوين الأدبي والفني، فأبلغت بذلك عبر الرواية والمسرح رسائلها الرافضة للمعرفة الكولونيالية الجاهزة من جهة والمقوضة للحظر المضروب على التاريخ الجزائري المكبوت من جهة أخرى، لقد برز في هذا الاتجاه عدد من الكتاب والمؤلفين، نذكر من بينهم فرانس فانون ومولود فرعون ونفيسة زردومي، حيث كتبت الأخيرة عن النهضة الوطنية وعن الشخصية الجزائرية، التي لم يعترف بها العلم

الكولونيالي واكتفى بدلها بالحديث عن العقلية أو الذهنية الجزائرية، فالأخيرة تتجاوب جدا مع مقولة الوحشنة التي تناهضها وتقاومها الشخصية الجزائرية.

لكن هذه الصحوة كانت تعاني من عدة معضلات، كان المستعمر الفرنسي قد أفرزها في جسد الشخصية الجزائرية وهي تنمو وتتطور تحت ظل حكمه، فلقد حذر إدريس شبوا في هذا الصدد من إمكانية ضياع تلك الشخصية واندثارها ما لم يتم النهوض سريعا بالقيم التقليدية، وتحدث خالد ميلود على ما يمكن أن تخلفه عقدة "جينة الإنسان الأبيض"، من أثار تدميرية على مستوى الشخصية، فتجعل من الجزائري يقبل بالتطبيع مع جلاديه ويستأنس بعلاقة دونية، يكتفي فيها بمكانة العبد الذي يخدم ويطيع سيده وفي هذا المعنى بالذات أوجز مالك بن نبي في مقولته "القابلية الاستعمارية"، العلاقة التي تربط المستَعمر بالمستعمِر. علاقة قد خلّفت حالة من الاستلاب والجهل ومن التخلف والتعطل التاريخيين فأذنت من حيث لا تنتظر وبشكل مفارق "بانبعاث تاريخ جديد يخرج من تحت التراب"(Aroua 1969, p.128)، ظهر فيه الشعب الجزائري في صورة المارد المتمرد الذي يأبى الفناء ويعصي التفتت والذوبان، ولا يرضى بأقل من انتزاع وطنيته وتشكيل شخصيته السياسية التي تميزه وتحرره، تنظمه في ذلك نخب نشطة ذات خلفية دينية لا تخطئها العين.

فلقد انتبه كل من ج. لوكا وأ. زقال وجورج لابيكا (G. Libica, J. Lecas et A. Zeghal) وغيرهما إلى هذا المعنى، وفسروا إشكالية التباس السياسة بالدين في الوطنية الجزائرية، على أنها من ثمرات الصراع الطبقي الموجود بين المجتمعات، مثلما يذهب إلى ذلك ريمون باربيه (Raymond Barbé). أو على أنها من تبعات نمط الإنتاج الما قبل الكولونيالي، كما يؤكد على ذلك رونيه جاليسوا (René Gallissot) فالمرجعية الماركسية المادية في هذا التفسير، هي على كل حال جد واضحة وهي بالمناسبة لا تشكل استثناء ولا نشازا، فالجزائر المستقلة قد اختارت منذ الوهلة الأولى السير على النهج الاشتراكي الماركسي، محدثة بذلك حالة من التناقض والتنافر بين القاعدة الاجتماعية ذات الرسوخ الثقافي وبين القمة الحاكمة ذات الهوى الاشتراكي، فسياسة التسيير الذاتي خصوصا في المجال الفلاحي والفصل بين العمل اليدوي والعمل الفكري دلائل معبرة على ذلك.

إن استحكام النظرة الماركسية وتحولها إلى أيديولوجية جزائرية، قد امتدت لتشمل العمل النقابي الذي كانت يمثله ويجسده على وجه الخصوص الاتحاد العام للعمال الجزائريين (U.G.T.A)، كما طال أيضا الجانب التعليمي والتربوي، فالقرارات التي خرج بها المؤتمر الثاني للاتحاد العام للعمال الجزائريين المنعقد أيام 23-28 من شهر مارس سنة 1965، قد شددت على ضرورة "أن تكون جميع العلوم كلها (بما في ذلك العلوم الاجتماعية) خاضعة إلى وجهة نظر واحدة، ألا وهي وجهة نظرة مصالح الطبقة العاملة"[11] ودشن بذلك عهد جديد تصحبه في ذلك حالة من الانتشاء باندحار المستعمر ونشوء الدولة الوطنية شديدة المركزية، التي طرحت تعريفاتها الخاصة بها خصوصا بالدور الذي ينبغي أن تكون عليه علوم الإنسان في الجزائر المستقلة.

خاتمة

لم يكن من السهل علينا معاودة النظر والقراءة، الممنهجة المنضبطة بالمعايير الأكاديمية والأخلاقيات الجامعية، لمدونة معرفية ضخمة قد أنجزت على مدار ما يزيد عن قرن من الزمن بأرض الجزائر البكر فالأمر شديد الحساسية، بالأخص وأن الأدبيات العلمية الاستعمارية قد شابها الكثير من السذاجة التي استحوذت على المؤلفين الذين اجتهدوا في إثبات وجود نزعة استعمارية في هذا العلم الاستعماري، وأن هناك سلطة ما تقف وراء هذه المعرفة، حينذاك كان من الطبيعي أن ينحاز الطرف المعني بتلك الرؤية إلى الأحكام المسبقة والأدلجة والمنهجية الوطنية، فما اعتبر بالأمس علما استعماريا ، أصبح اليوم وبعد الاستقلال يعتبر بشكل عكسي ومناقض "علما وطنيا"، تتحسس من ورائه السلطات من كل ما هو أجنبي وتتوجس في الغالب من الأقلام البعيدة، هذا وعلى الرغم من الوضع الملغم الذي عرفه العلم الاستعماري، فإن ذلك لم يكن ليمنع تذكر كولونا "أن بعض المنتجين كانوا قد أنتجوا معارف حقيقية" في خضم هذه المعطيات المتباينة والوضع المتضارب، جاءت أسئلة عادل فوزي لتعبر عن القلق والحيرة اللتين تساوران الباحث المنشغل بممارسة العلم بطريقة محايدة ونزيهة، "فهل يا ترى(يتساءل عادل) بإمكاننا حقا أن نصبح فاعلين في حقل

[11] -- اتخذ القرار بالمؤتمر الثاني للاتحاد العام للعمال الجزائريين U.G.T.A المنعقد في فترة 23 الى 28 مارس سنة 1965.

الأنثروبولوجيا، بعدما كنا موضوعا غرائبيا مدة من الزمن؟ وبأي ثمن؟ وماذا نفعل بالإرث المتراكم؟ هل سنرسل" الأعمال الكافرة "إلى محاكم التفتيش وبعدها إلى المحرقة، أو استخلاص الدروس والاستفادة منهجيا من جميع التحقيقات التي جرت حتى الآن، قائلين بأن لا يمكننا اليوم طرح نفس الأسئلة التي طرحها من سبقونا" (فوزي، 1999، ص، 14). إننا نعتقد وبعد مرور ستة عقود من استقلال الجزائر والتي أصبح وضعها من وضع العالم، تشهد تلاشي في الحدود بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وتعديلا في الهويات الثقافية وذلك بفعل ما أحدثه زلزال "العولمة" من قفزات وطفرات كاسحة، لم يعد هذا السياق المستحدث ليقبل بالعناوين والطروحات الكلاسيكية، من قبيل مواضيع مناهضة الاستعمار ومجابهة النزعة الاستشراقية، فعهد ما بعد الكولونياليات قد أنتج سرديات جديدة، تدعو إلى تذليل الحوائل والحواجز وتضييق الشروخ بين الشرق والغرب، وتركز نظرتها على حضارة إنسانية تتحدث بأصوات متعددة، يتراوح فيها القول بين التنديد بالغرب الاستعماري والشرق المتخلف والمتسلط على حد سواء.

ولعل ما كتبه على سبيل المثال لا الحصر ادوارد سعيد الفلسطيني في هذا الصدد، أو أرجون أبادوريه (Arjun Appadurai) الهندي قد أطاح بشكل أساسي وعميق بتلك المقولات التي تزعم أن ثمة "امتياز ابستمولوجي ما للأهلي"(مجاهيد، 1986، ص، 219) على حساب الأجنبي في إدراك ما خفيا من معنى وما تشكل من روح جماعية وذاكرة محلية!. إن هذه النظرة الأحادية إنما تتغذي على تصور أيديولوجي مسبق، تتحكم فيه الوطنية المنهجية التي لا تميز بين ما هو ابستيمي وبين ما هو وطني. على هذا الأساس حرصت ورقتنا في هذا العمل على تجسير المسافة، وتكثيف التبادل والاستفادة من الإرث الإنساني من غير هيمنة ولا استغلال. فالإقبال على المدونة المعرفية الكولونيالية بهذا الأسلوب المتعافي من مختلف القبليات التعميمية، هو من شأنه أن يكشف لنا عن كنوز وذخائر من ذاكرة الشعوب وثقافاتها المركونة على هامش العقل المركزي الأوربي/الغربي، وتمثل لدينا إضافة ثمينة ينبغي فقط حسن استعمالها واستغلالها، وذلك من أجل إعادة التعرف على الذات وعلى كل ما هو محلي بعيون الآخرين على أن يتم قبل ذلك التخلص من جميع المعيقات النرجيسية، والنزعات الأيديولوجية الحاجزة والمانعة الموجودة في كلا الضفتين، فهذا في تقديرنا ما يمكنه أن يقدم إضافات علمية حقيقية تخدم المعرفة السوسيولوجية والأنثروبولوجية على وجه الخصوص.

المراجع

1. ادوارد س.، 2001. الإستشراف، المعرفة، السلطة، الإنشاء، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط.5.
2. شولين ك.، 2005. الأنثروبولوجيا و/أو السوسيولوجيا؟ التفاتة إلى الخلف لدراسة ممارساتنا في هاذين الحقلين، إنسانيات العدد 27 ،ص،ص 5-9.
3. فوزي ع.، 1999. إشكالية، ترجمة : عنصر العياشي، وقائع الملتقى،أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر،تيميمون 22-23-24، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ص14.
4. مجاهيد ح. م.، 1986. العقلانية والمشروع العربي: الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية الرباط: المغرب، العدد: 26-27، ص: 219.
5. Aroua A., 1969. *L'Islam au croisé des chemins*. Alger: S.N.E.D.
6. Appadurai, A., 2005. *A prés le colonialisme: les conséquences culturelles de la globalisation, Paris*: Payot.
7. Blanchard J., 1955. *Le problème algérien: réalités et perspectives,* P.U.F., Paris.
8. Barbet Ch., 1903. *La femme musulmane en Algérie*, Jourdan, Alger.
9. Barbe R., 1959. Les classes sociales en Algérie, *économie et politique* (61 et 62), sept.- oct.
10. Basset A., 1929. *La langue berbère: morphologie, le verbe; étude de thèmes* (collection du centenaire de l'Algérie), Leroux, Paris.
11. Beck U., 2006. *Qu'est-ce le cosmopolite*?, Paris, Flammarion.
12. Bencheneb S., 1965. Publication en 1957, «Quelques historiens arabes», centenaire de la société historique algérienne 1856-1956, *revue africaine*, Alger. p. 475-499.
13. Bromberger C., 2002. *Une vision de la méditerrané: une manière ethnologique d'être au monde*, in C. Bromberger et T. Todorov, Germaine Tillions, *une ethnologue dans le siècle*, Arles, Actes sud.
14. Bourdieu P., et Sayad A., 1964. *Le déracinement: la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie*, édition de Minuit, Paris.
15. Boyer P., 1960. *L'évolution de L'Algérie médiane: l'ancien département d'Alger de 1830 à 1956*, Adrien Maisonneuve, Paris.
16. Carteron C., 1866. *Voyage en Algérie,* Hertzel, Paris.
17. Chaulet C., 1971. *La Mitidja autogérée*, S.N.E.D. Alger.

18. Chebou D. L'approche psychosociologique de la personnalité algérienne, *révolution africaine* (3-5-6-7-6).

19. Claudine et Descloitres, Reverdy R. J.-P. 1969. *L'Algérie des bidonvilles: les tiers mondes dans la cité*, mouton and Co, Paris La Haye.

20. Colonna, F. 1976. *Production scientifique et position dans le champ intellectuel et politique*, deux cas: augustin Berque et Joseph des permet, in *le mal de voir* ,Paris, UGE, Coll. 10/18.

21. De Neveu P.E. 1845. *Les Khouans, ordre religieux chez les musulmans,* Paris, Guyot.

22. Dermenghem, E. 1954. *Le culte des Saints dans l'islam Maghrébin,* Paris, Gallimard.

23. Desparmet J., 1937. *Contribution à l'histoire contemporaine de l'Algérie description matérielle: description: note:* éxtr. de *: Afrique française*. Aout Sept.

24. Depont O., Coppolani X., 1897. *Les Confréries religieuses musulmanes en Algérie,* Alger, Jourdan.

25. Doutte E., 1900. *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Alger, librairie Adolphe Jourdan.

26. Duchene F., juin 1903. *La femme musulmane dans l'Afrique du Nord*, la revue, p. 470- 478.

27. Eugene D., 1912. La femme arabe, Jourdan, Alger.

28. Fanon F. 1966. *Sociologie d'une révolution: l'an V de la révolution algérienne*, Maspero, Paris.

29. Gallissot R., 1969. *Les classes sociales en Algérie : l'homme et la société* 14, oct.-nov.-déc.

30. Gendarme R. 1959. L'économie de l'Algérie, sous développement et politique de la croissance, *Cahier de la fondation nationale des Sciences Politiques,* 101, A. Colin, Paris.

31. Hanotaux A., Letourneux A., 1893. *La Kabylie et les coutumes Kabyles,* 2e éd., Paris, Challamet.

32. Khaldi A., 1949. *Le problème algérien devant la conscience démocratique,* préface de Salah Bensai, En Nahda, Alger, s.d.

33. Larcher E., 1903. *Traité élémentaire de législation algérienne, Rousseau*, Paris, 2 vol ; Jourdan, Alger.

34. Lucas P., Vatain J., 1975. L'Algérie des anthropologues, Paris, Maspero.

35. Mercier E., 1895. *La condition de la femme musulmane dans l'Afrique septentrionale*, Jourdan, Alger.

36. Marçais G., 1930. *Le costume musulman d'Alger*, librairie Plon, Paris.

37. Mercier G., 1957. *Morphologie l'exploration scientifique de l'Algérie, in initiation à l'Algérie*, Paris, A. Maisonneuve, pp. 325-343.

38. Merton R. K., 1965. *Eléments de théorie et de méthode sociologique,* Trad., de l'américain par Henri Mandras, Brionne, G. Monfort.

39. Milliot L., 1905. *La femme musulmane du Maghreb: Maroc, Algérie, Tunisie*, Rousset, Paris.

40. Quandt W. B., 1969. *Revolution and political leadership. Algeria 1954-1968, Comparative politics* series, the M.I.T. press, Cambridge, Mass.

41. Rachik H., 2012. *Le proche et le lointain, un siècle d'anthropologie au Maroc*, édition parenthèses/MMSH, France.

42. Rinn L., 1884. *Marabout et Khouan: étude sur l'islam en Algérie avec une carte indiquant la marche, la situation et l'importance des ordres musulmans* Jourdan, Alger.

43. Saada J.F., 1967. Le traditionalisme par excès de modernité, *Archives européennes de sociobiologie* (8).

44. Sahli M. CH., 1962. *Décoloniser l'histoire*, Paris, Maspero.

45. Servier A., 1913. *Le péril et l'avenir : le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie et en Algérie*, M. Boet, Constantine.

46. Vatin J.C., Défense. 1976. De l'Anthropologie à propos de: le mal de voir! *cahiers Jussieu 2*, université de Paris VII, Union générale d'éditions, coll. 10/18.

47. Wood N., 2003. Germaine Tillion, *une femme mémoire: d'une Algérie à l'autre,* Paris, Autrement.

48. Zerdoumi N. 1970. *Enfants d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionnel algérien*, Maspero, Paris.